جورج شامي

سنشرح لك صدرك

واهتز كيانه مع اهتزاز الشاحنة ، واحس بعظامه تصيء بدورها مع العجلات والمحرك والابواب والصناديق واحتكاك الخشب والحديد بالحياة ، وتحاملت الشاحنة على نفسها ببطء وضنك وارتباك واهتزاز . كانت اشبه بهيكل انسان تصطك عظامه وركبتاه .

وانصت استقلال الى السائق . وما هي الا هنيهة حتى نطق ، فظن ان كلماته هي التي تحمل له الامل بالنجاة ، ولكنه تبين انها ليست موجهة اليه بل الى الجند عنـد السد . وتباطأت الشاحنة وهي تجتاز السد ، كأنما كانت تختال تيها ودلالا وتتعثر بغبطتها ، ثم انطلقت بسرعة .

وكان سمعه ما زال مشدوداً الى السائق حين قال له مرات : « سنشرح لك صدرك . سنشرح لك صدرك . سنشرح لك صدرك » . ويقهقه ، ويكاد ان يجن من الضحك .

اما استقلال فقد اخذته غيبوبة الفرح .

لقد خرجت به الشاحنة من وجدة ، مركز المناضلين ، منذ اكثر من ساعتين ؛ قاصدة سد امل على الحدود . وكانت نقطة امل تبعد حوالي مائتي كيلومتر عن وجدة ، ولم يكن

باستطاعة الشاحنة ان تسير باسرع من خمسة وثلاثين كيلومتراً في الساعة ، فثقل السنين لا يساعدها على ان تسرع ، وكانت الطريق التي تسير عليها مثخنة بالجراح العميقة ، وكان عليها في طريقها الى امل ان تمر بثلاث نقاط تفتيش قبل ان تبلغ السد الكبير المبني بالخشب والحديد والجند .

وكان استقلال ممددا في تابوت على ظهر الشاحنة ، وتجثم فوقه وفوق التابوت وحولهما مئات الصناديق الفارغة ، وتحيط به الظلمة من كل جانب . ولكن استقلال لم يفقد حسه بالنور وبالحياة خارج اطنان الصناديق ، وكان ذهنه مركزاً على عبارة اتفق ان على يسمعها من سائق الشاحنة كلما اجتازوا احدى النقاط : « سنشرح لك صدرك » .

كان التابوت بالنسبة له اشبه برحم الموت ، الا انه كان ذروة محاولاته للبقاء حياً خارج بلاده . كان التابوت امله الوحيد الذي ينتقل بواسطته ، لا من الحياة الى الموت ، بل من الحياة على رجاء الحياة .

هو نفسه اختار هذه الوسيلة .

لقد رفض الهرب خارج حدود بلاده بحماية المجاهدين ، فذلك يتطلب وقتاً طويلا ، ووضعه لا يسمح له باضاعة الوقت . ورفض تزوير جوازه للمرور ، فهو يأبى ان يواجه اعداء بلاده على الحدود بوجه مزور ، ففي ذلك خيانة منه لذاته .

وكانت الشاحنة تسير ببطء ، تحمل وزر الضنك والغبار والبعاد ، انهكها النضال كما انهك سائقها .

وكان يربط استقلال بالسائق لهب الجهاد ، فالاثنان من المناضلين ، ومع هذا كانت حياته رهينة السائق ورهينة الظلمة والنور ورهينة التابوت ورهينة القدر والمعدو .

فالى متى يطول انتظاره ويطول اسره ؟

طرح السؤال على نفسه مرات دون جواب ، ودون ان يؤتى الجرأة على رفع الصوت .

واجتازت الشاحنة في طريقها نقاط الحراسة ، الاولى والثانية ، بسلام دون ان يشعر استقلال وهو داخل تابوته بأي حرج ؛ فقد اكتفى حراس هاتين النقطتين بالتحية التي ارسلها اليهم سائق الشاحنة ، المحنك المجرب ، واكتفوا باجوبته الهادئة على اسئلتهم السخيفة : من اين جئت والى اين انت ذاهب وماذا تحمل ؟

لقد اعتاد سائق الشاحنة هذه الاسئلة ، كما اعتاد الوجوه والمظاهر فلم يعد يرهبه شيء ، فصور الجند والاسلحة والحواجز محفورة في دماغه ، وتخدرت عيناه وتخدر قلبه

بمظاهر العداوة والحقد والبغضاء ؛ في قلبه نما كل شيء وتكاثف ، وتبلد ذهنه على كل غريب ، حتى على القوة والبطش .

وكان عزاء استقلال انه في كل مرة اجتازت الشاحنة احدى النقاط بسلام ، سمع عبارة الامل : « سنشرح لك صدرك » .

وكان يحبس انفاسه داخل التابوت كلما سمع روادع السيارة تشد على العجلات لتوقفها، او كلما سمع حركة الاحياء خارج عالمه المظلم .

ولازمه الخوف منذ بداية الرحلة فاصبح سيد ذاته ، ولم يكن يملك حرية التصرف ليكشح عن ذاته مظاهر هذا الخوف الذي يجثم فوق صدره باثقل من الموت وباثقل من الظلمة والوهم وباثقل من اطنان الصناديق الملأى بالفراغ .

سجن سبع مرات، و سيم عذابا رهيبا ، ولم يخف . انتزعه الجند ليلة عرسه من بين ذراعي زوجته ، ولم يخف .

وتعيش بنتاه اليوم مع والدتهما في غارداية ، في منطقة نائية تدعى الميزاب ، دون رجل ؛ وهو يهب نضاله لوطنه ، بعيداً عنهن ،شريداً طريداً ممزقاً ، منذ سبع سنوات.

فلماذا هو الآن ، في هذا اليوم يوم العيد ، في طريق الهرب ، يسعى الى حدود خارج حدود بلاده ، ممدداً على ظهره مثل جيفة باردة ، مثل جثة ؟ لماذا اختار التابوت جواز مرور ؟ لماذا يهرب هذه المرة من النضال ؟ أخوفا من الموت يهرب ؟ هل فقد شهية القتل ؟ هل فقد القدرة على تحمل العذاب ؟ تحمل الكي بالكهرباء ، في الاماكن الحساسة من جسده ، وتقبل الغرق في احواض الماء العفن . أفلم تعد احشاؤه تتسع للماء تملأها به الخراطيم حتى يفقد وعيه ، ثم تدوسه الارجل حتى يخرج الماء منه ؟ أفلم يعد في جسده مكان تنهشه الكلاب ؟

حفر قبره بيديه مرات وهو في السجن ، وكان الحقد يملأ قلبه على عدوه ، ويغذي فيه نقمة عارمة ضده . حقده هذا هو الذي دفعه للهرب من السجن حتى ينتقم ، فما باله قد سجن نفسه في تابوت ، وتخلى عن رفاقه في النضال ؟ أفلم يعد لوطنه قيمة في ذاته ؟

وكان يعزي نفسه بانه سيخوض معركة بلاده خارج حدود بلاده ، سيحطم التابوت عنه ويعود الى نضاله ، فمعركة بلاده بحاجة الى مساندة من الخارج ايضاً . سيحمل نضال بلاده الى ضمير العالم يهزه ، كما هزه بقوة السلاح داخل بلاده .

منذ خمس دقائق قال له سائق الشاحنة : انتبه ، لم تعد تفصلنا عن حاجز امل سوى

عشرة كيلومترات . واعاد عليه التعليمات : لا تتحرك ، اخفت انفاسك .

منذ تلك اللحظة وقلبه يسرع بالخفقان ، والاستفهامات تتراقص في ذهنه : هل ينزل الجنود الصناديق كلها الى الارض ويفتشونها ويحظون به ؟

لقد اخبره سائق الشاحنة ان بعض حراس الحاجز درجوا خلال سنوات النضال على تفتيشه تفتيشاً دقيقاً كلما دخل او خرج ، وكانوا يجبرونه على انزال حمولته وفتح الصناديق امامهم للتأكد مما في داخل كل منها على حدة . وحرص طوال هذه المدة على استعمال الصناديق نفسها لعل عيون الحراس تألفها فلا تثير فضولهم في كل مرة ، ولكنه لم يفلح بردعهم عن اخضاعه للتفتيش الدقيق .

واحس استقلال وهو داخل التابوت بطعم الخيبة في فمه ، وكادت امعاؤه ان تتمزق من مرارة الجوع ، وتسمرت عيناه بالثقب الضيق في سقف التابوت، وتعلق سمعه بالثقبين الضيقين الجانبيين .

كانت هذه الثقوب كل ما يربطه بالعالم الخارجي .

واستعاد حادثة هربه من السجن منذ اسبوع ، ولماذا هرب . كان يتسنى له ان يشاهد من سجنه المنتصب فوق تلال حيفا ابناء وطنه يعاركون اعداءهم، وكان ازيز الرصاص يناديه هو ورفاقه ويلح عليهم ؛ كان الدم المسفوح يستصرخ العدالة ، وافئدتهم تتمزق . وها هو الآن يسمع طلقات الرصاص في كل جانب ، ولكنه لا يرى شيئاً .

وقبل ان تصل الشاحنة الى نقطة امل بكليومتر واحد نبهه السائق وكرر عليه التعليمات . دعاه الى الاستكانة والتذرع بهدوء الاعصاب . ولكن اعصابه فائرة ، وكان يزعجه صمت الطريق وتغمره انفاس الصحراء بحرارة خانقة .

وكاد ان يغمى عليه حين شعر بالشاحنة تهتز بعنف كأنما اصطدمت بشيء ، ثم توقفت وسمع صديقه السائق في جدل مع اغراب ادرك من لهجتهم واسئلتهم انهم حرس نقطة امل ، فحاول حينئذ ان يحبس انفاسه قدر المستطاع ، وغرق بصمت عميق .

وادرك ان حياته رهن بحنكة السائق ، فقد بدا له من لهجة الحراس انهم يصرون على ان ينزل الصناديق الى الارض لتفتيشها .

وعمد السائق الى الحيلة ، فقال لهم :

« الا تشفقون عليّ بشفاعة هذا اليوم ؟ لقد مضت عليّ ساعات وانا جالس وراء هذا المقود ؛ ألا ترون اني متقدم في السن ؟ »

ونزل السائق من السيارة الى مكتب رئيس النقطة ، وراح يتوسل اليـه ، ثم طلب شربة ماء . وفيما كانت المساومة قائمة بين الاثنين جاء احد الجنود بحربة وراح يدخلها بين الصناديق . ودخلت الحربة في احـد الثقوب في التابوت وغرزت في جنب استقلال ، لكن الجندي لم يفطن الى انها اصطدمت بشيء رخو . فعاد وسحبها ليغرزها في مكان آخر . بينما راح استقلال يعاني من الالم دون ان يتمكن من تحسس الجرح ولا التأوه ، ولكنه شعر بالوجع يزداد وبالملوحة تحرقه ، وشعر بالغيبوبة تكاد تستبد به .

وسمع استقلال صديقه سائق الشاحنة يقول لرئيس النقطة بيأس :

« حسناً ، كما تشاء . سأنزل لك الصناديق » .

وشعر به يقفز فوق الصناديق ويباشر بانزالها ، فادرك ان ساعته دنت ، وانه قد يقتل هو والسائق في هذه الارض النائية ، زوراً ودون محاكمة او شفاعة او جدوى ، سيقتلان بشكل تافه .

واحس لاول مرة بضعفه وخوره ، فراح يصلي . كعم كعما للصلاة ، ولم يكن يعرف ماذا يقول . فراح يهذي في طلب الخلاص ، ولفه العرق البارد ، فبلل ثيابه الرقيقة التي كان يلبسها وطفا على وجهه فانسح على رقبته واذنيه وعينيه وشفتيه فاغرقها بالملوحة . ولم يكن باستطاعته ان يحرك يديه المسبلتين الى جنبه ليمسح العرق عن عينيه فاغمضهما وعن شفتيه فاطبقهما . كان يتـألم ولا يستطيع الصراخ ولا الحراك . حتى انفاسه كان عليه ان يخفتها فلا يتنفس بارتياح . واستولى عليه الخزي : صعب عليه ان يموت هكذا ، بكل سهولة وببلاهة .

ولم يعد يشعر بشيء .

بعد مدة (أكانت لحظات ام دقائق ام دامت فترة اطول ؟ لم يكن يدري) ، احس بكيان الشاحنة يهتز من جديد وبعظامه تصيء بدورها مع العجلات والمحرك والابواب والصناديق واحتكاك الخشب والحديد بالحياة . أكانت تنقل الشاحنة الى داخل النقطة ، او تعادالى المدينة ، او في طريقها الى النجاة؟ كان احساسه بالغلبة يصارع الوهن ، وكان يفقد سيطرته على وعيه وادراكه واعصابه ، وبطنه يكاد ان ينفزر بالبول .

كان استقلال داخل التابوت يفقد وعيه للاشياء والاصوات ، الا لصوت كان يجيء سمعه مكررا ، ولم يعرف أيجيئه بحق او في حلم :

« سنشرح لك صدرك . سنشرح لك صدرك . سنشرح لك صدرك » .